عالم الأرصاد الجوية في ظلال القرآن الكريم والسنة النبوية

د.محمود عبد الرحمن عبد العليم
أخصائي علاقات عامة وإعلام أول

يقرّائي الأعزاء، يسعدني أن ألتقي بكم في عدد جديد من مجلة الأرصاد الجوية، لنستكمل سويًا ما بدأناه في هذه السلسلة من المقالات بعنوان "عالم الأرصاد الجوية في ظلال القرآن الكريم والسنة النبوية"؛ حيث حظيت الظواهر الجوية المختلفة باهتمام بالغ في مصادر الشريعة الإسلامية السمحة، سواء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة، فقد ذُكر عدد من الظواهر الجوية كالرياح، والسحب، والمطر، والرعد، والبرق، والصواعق، والعواصف، والحر، والبرد، وغيرها، في آيات القرآن الكريم، وكذلك في أحاديث نبينا ورسولنا الأمين محمد ﷺ، وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدل على أن عالم الأرصاد الجوية بما يشمله من ظواهر متعددة يشكل اهتمامًا بالغًا في الشريعة الإسلامية؛ وذلك لأنه يتعلق بحياة الناس وصحتهم، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بمصالحهم وأعمالهم، ومن مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة: تنظيم حياة الناس ومعاشهم، وما يصلح أحوالهم وتستقر به شؤونهم، كما أن هذه الظواهر تُعد من المعجزات الدالة على قدرة الله عز وجل، والتي تثبت أن الله تبارك وتعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه، والمتصرف سبحانه في كل صغيرة وكبيرة؛ فلا شيء يحدث في هذا الكون إلا بإرادة الله عز وجل، ووفقًا لقدرته وحكمته البالغة، مصداقًا لقوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر: ٤٩]، ونعرض فيما يلي ظاهرة أخرى من ظواهر عالم الأرصاد الجوية، ورد ذكرها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وتُعد دليلاً على قدرة الله تعالى ورحمته ولطفه بعباده، بل وبجميع الكائنات والمخلوقات، ألا وهي ظاهرة المطر.

آيات المطر في القرآن الكريم :

يُعدّ المطرُ أحدَ أعظمِ ظواهرِ الأرصادِ الجويةِ التي تعكسُ قدرةَ اللهِ تعالى وحكمتَه في تدبيرِ الكون؛ فقد جعلَ اللهُ المطرَ سببًا لاستمرارِ الحياة، ووسيلةً لإحياءِ الأرضِ بعد موتِها، كما جعله أحيانًا أداةً للعذابِ والقضاءِ على الظالمين. وقد وردَ ذكرُ المطرِ ومشتقّاتُه في القرآنِ الكريمِ في مواضعَ عديدةٍ؛ ليدلَّ في بعضها على الرحمةِ والخيرِ والبركةِ، وفي بعضها الآخرِ على العقوبةِ والعذابِ والهلاك. إنّ التعمّقَ في تدبّرِ آياتِ المطرِ في القرآنِ الكريمِ يكشفُ عن الجوانبِ المتعدّدةِ لهذه الظاهرةِ، وما تحمله من معانٍ عميقةٍ تتّصلُ بحياةِ الإنسانِ، وعلاقته بخالقِه تبارك وتعالى.

إنّ المطرَ سرُّ الحياةِ، وقد جعله اللهُ عبرةً لأولي الألبابِ والأفهام؛ فهل تأملتَ يومًا في أسرارِ المطر؟ وهل تدبّرتَ يومًا آياتِ المطرِ في القرآنِ الكريم؟ فالمطرُ ليس مجرّدَ ماءٍ يهطلُ من السماءِ، بل هو رسالةٌ من اللهِ عزّ وجلّ تُجسّدُ الرحمةَ تارةً والعذابَ تارةً أخرى. والمطرُ في القرآنِ الكريمِ ليس ظاهرةً طبيعيةً فحسب، بل هو رمزٌ عميقٌ يعبّرُ عن حياةِ الأرضِ وحكمةِ اللهِ في التدبير.

وتوجد عدةُ حقائقَ مدهشةٍ عن المطرِ في القرآنِ الكريم؛ فالمطرُ يأتي كنعمةٍ لإحياءِ الأرضِ ونموِّ النباتات، كما في قوله تعالى: {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [النحل: ٦٥]، ويأتي المطرُ في القرآنِ الكريم أيضًا كأداةٍ للعقاب، مثل قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} [الشعراء: ١٧٣].

إنَّ تدبُّرَ آياتِ المطرِ في القرآنِ الكريم يُعيننا على إدراكِ الفرقِ بين "المطر" و"الغيث"، بل ويُعمِّقُ فهمَنا لعظمةِ البيانِ القرآني؛ حيث يُعبِّرُ الأولُ غالبًا عن العذاب، بينما يرمزُ الثاني إلى الرحمةِ والرجاء.

أنواع المطر في القرآن الكريم :

تتعدد أنواع المطر في آيات القرآن الكريم، ولكل نوع دلالاته وسياقاته؛ فآيات المطر في القرآن الكريم تأتي في سياقات مختلفة، تتراوح بين الإشادة بالنعم التي يحققها المطر، والتحذير من عاقبة نزول المطر كعذاب إلهي.

● أولًا: مطر الرحمة:

ويرتبط مطرُ الرحمةِ بالخيرِ والرجاءِ والبركةِ؛ وهذا النوع من المطر يُحيي الأرضَ ويُنبتُ النباتاتِ بإذنِ الله، وهو دليلٌ على رحمةِ اللهِ الواسعة. وهناك آياتٌ كريمةٌ جاءت عن المطرِ بمعنى الرحمةِ والخيرِ والرزق، كما في قوله تعالى:

{ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } الأنعام: ٩٩

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف: ٥٧ .

{ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الجاثية : ٥

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } النمل: ٦٠ .

{ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } النحل: ٦٥ .

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } الفرقان: ٤٨

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ } غافر: ١٣ .

{ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ } ق: ٩ .

وإذا تدبرنا الإعجاز القرآني في الآيات السابقة فسوف نجد أن القرآن الكريم ورد فيه ذكر نزول المطر الذي يحمل البركة والرحمة بلفظ الماء ثم استبدله بلفظ الرزق والذي يدل على الخير والنماء.

- ثانيًا: مطر العذاب :

"يأتي مطر العذاب كأداة لتدمير القرى الظالمة، ويُظهر هذا النوع جانبًا آخر من الحكمة الإلهية في إنزال المطر. ومن الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر المطر بمعنى العقاب والعذاب، قوله تعالى:"

{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورا} الفرقان٤٠ .

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ } هود: ٨٢

{ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } الأحقاف: ٢٤ .

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} الأعراف: ٨٤ .

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ } النمل: ٥٨ .

كلمة المطر ومشتقاتها في القرآن الكريم :

"وردت كلمة "المطر" ومشتقاتها في حوالي ١١ موضعًا في القرآن الكريم، بينما وردت في مواضع أخرى بألفاظ تفيد معنى المطر، مثل: "الصيّب"، و"الغيث"، و"الودق"، و"الطل"، و"الوابل"، وذلك في مواضع مختلفة. ويعكس تكرار هذه الألفاظ أهمية المطر كظاهرة من الظواهر الجوية التي تؤثر تأثيرًا بالغًا في حياة البشر ودورها في الكون. ومن أمثلة الآيات الكريمة في القرآن الكريم، قوله تعالى:"

{وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً } النساء: ١٠٢ .

{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ } الحديد: ٢٠ .

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} البقرة: ١٩ .

{ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } الشورى:٢٨ .

{ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } لقمان: ٣٤ .

الفرق بين المطر ومشتقاته في القرآن الكريم :

"ميّز القرآن الكريم بين المطر، والغيث، والصيّب، والوابل، والطَّل، حيث إن لكلٍ منها استخدامًا دقيقًا يُعبّر عن سياقٍ معين."

١- المطر: يُستخدم غالبًا للإشارة إلى العذاب أو العقوبة، كما في قول الله تعالى:
{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} الشعراء: ١٧٣.

٢- الغيث: يُطلق عادةً على المطر النافع الذي يأتي في وقت الحاجة، ويُستخدم في سياق الرحمة والنجدة، كما في قوله تعالى: كما في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} الشورى: ٢٨.

٣- الصيب: هو المطر الذي يصوب وينحدر، أي ينزل بكثرة ويقع كما في قوله تعالى {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} البقرة: ١٩ .

٤- الوابل: هو المطر القوي الشديد الذي يستمر وترتوي به الأرض.

٥- الطلّ: هو الرذاذ من المطر, يعني: الليّن منه أي مطر ضعيف، وقد يسمى الندى طلاً.وقد جمعت هذه الآية الكريمة بين الوابل والطل قال تعالى: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} البقرة: ٢٦٥ ، وهذا التمييز يعكس عظمة البيان القرآني ودقته في اختيار الألفاظ بما يناسب المعاني المختلفة

نعمة المطر في القرآن الكريم:

يعد المطر أحد أعظم النعم التي أنعم الله بها على الخلق جميعًا؛ فهو رمز للحياة والنماء والرخاء، ولقد أشار الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز إلى أهمية المطر في عدد من المواضع؛ ليظهر أثره في إحياء الأرض وإنبات النباتات وشرب الإنسان والحيوان.يقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} (الأنعام: ٩٩).يشير هذا النص إلى العلاقة المباشرة بين نزول المطر وإنبات كل أنواع النبات التي يعتمد عليها الإنسان والحيوان. وفي آية أخرى، يربط القرآن الكريم بين المطر وتجدد الأمل؛ يقول الله تعالى: فالغيث هنا يمثل الرجاء بعد القحط واليأس، وهو من أهم معاني المطر في القرآن العظيم.والمطر في القرآن الكريم أيضاً وسيلة لإحياء الأرض بعد موتها، كما في قوله تعالى: {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} (النحل: ٦٥). وهنا يتجلى المطر كرمز للحياة في أبهى صورها

المطر في السنة النبوية المطهرة:

اهتم النبي صلى الله عليه وسلم اهتمامًا كبيرًا بشأن المطر؛ بل حث النبي صلى الله عليه وسلم على الذكر عند نزول المطر لما فيه من خير وبركة، والدعاء عند انقطاعه لما فيه من هلاك للناس والحيوانات والنباتات، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عاشة رضي الله عنها أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذَا رَأَى المَطَرَ، قالَ: "اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا." أي: مَطَرًا نافعًا للعبادِ والبلادِ، وليس مَطَرَ عَذابٍ أو هَدْمٍ أو غَرَقٍ، كما أهلَكَ اللهُ قَومَ نوحٍ بالسُّيولِ الجارفةِ.

وكذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما: أنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَومَ الجُمُعَةِ مِن بَابٍ كانَ وِجَاهَ المِنْبَرِ، ورَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَائِمًا، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ المَوَاشِي، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قالَ: فَرَفَعَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدَيْهِ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا. قالَ أنَسٌ: ولَا واللَّهِ ما نَرَى في السَّمَاءِ مِن سَحَابٍ، ولَا قَزَعَةً، ولَا شيئًا، وما بيْنَنَا وبيْنَ سَلْعٍ مِن بَيْتٍ، ولَا دَارٍ. قالَ: فَطَلَعَتْ مِن ورَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أمْطَرَتْ، قالَ: واللَّهِ ما رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِن ذلكَ البَابِ في الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ، ورَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الأمْوَالُ وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا، قالَ: فَرَفَعَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، ولَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ علَى الآكَامِ والجِبَالِ، والآجَامِ والظِّرَابِ، والأوْدِيَةِ ومَنَابِتِ الشَّجَرِ. قالَ: فَانْقَطَعَتْ، وخَرَجْنَا نَمْشِي في الشَّمْسِ.

كما أخرج أبو داود في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنها قال:أتتِ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ بواكي فقالَ "اللَّهمَّ اسقِنا غيثًا مغيثًا مريئًا مريعًا نافعًا غيرَ ضارٍّ عاجلًا غيرَ آجلٍ قالَ فأطبقت عليْهمُ السَّماءُ."

وقوله أتَتِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم "بَواكِي"، أي: نِساءٌ باكِياتٌ؛ بسبَبِ انقِطاعِ الغيْثِ وهو المطر، فقال: "اللَّهمَّ اسقِنا غيْثًا"، أي: مطَرًا، "مُغيثًا مَريئًا"، أي: صالِحًا مثْلَ الطَّعامِ، "مَريعًا"، أي: خِصْبًا، "نافِعًا، غيرَ ضارٍّ"، أي: تُحمَدُ عُقْباهُ، ليس فيه ضرَرٌ؛ مِن غَرقٍ وهَدْمٍ، "عاجِلًا غيرَ آجِلٍ"، فاستَجابَ اللهُ له صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ فَقد "أطبَقَتْ عليهِمُ السَّماءُ"، يَعني: أصابَتْهم بالمطَرِ الكَثيرِ، واستَجابَ اللهُ ما دعا بِهِ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن نُزولِ الغَيْثِ.

كما جاء في الصَّحيحَينِ مِن حَديثِ أم المؤمنين عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها أنَّها قالتْ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الغَيمَ فَرِحوا؛ رَجاءَ أنْ يكونَ فيه المطَرُ، وأراكَ إذا رَأَيتَه عُرِفَ في وَجْهِك الكراهيةُ، فقال: يا عائشةُ، ما يُؤْمِنِّي أنْ يكونَ فيه عَذابٌ؟ عُذِّبَ قومٌ بالرِّيحِ، وقد رَأى قومٌ العذابَ، فقالوا: هذا عارِضٌ مُمطِرُنا.وهذا الحديث الشريف يؤكد أن المطر كما أنه يكون سببًا في الخير والرزق والنماء والرخاء، يمكن أيضًا أن يحمل في طياته عقابًا أو عذابًا ينزل على العصاة والمفسدين في الأرض كما حدث مع قوم عاد.

وقد أخرج الإمام البخاري أيضًا في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني قال: صَلَّى لَنَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ علَى إثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أقْبَلَ علَى النَّاسِ، فَقالَ: هلْ تَدْرُونَ مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أصْبَحَ مِن عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وكَافِرٌ، فأمَّا مَن قالَ: مُطِرْنَا بفَضْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلكَ مُؤْمِنٌ بي وكَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأمَّا مَن قالَ: بنَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بي ومُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ.

وفي هذا الحديث الشريف يبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس في الجاهليَّةِ كانوا يَعتقِدون أنَّ النُّجومَ سَببٌ في نُزولِ المطرِ حقيقةً، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على إخراجِ أُمَّتِه مِن الجاهليَّةِ بكُلِّ ما فيها مِن شُرورٍ وآثامِ شركٍ، إلى الإسلامِ وشَرائعِه، وما فيه مِن خَيرٍ وتَوحيدٍ. وفي هذا الحديثِ يَحكي زَيدُ بنُ خالِدٍ الجُهَنيُّ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صلَّى صَلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبيَةِ -وهي قَريةٌ قَريبةٌ مِن مَكَّةَ، سُمِّيَت الحُدَيْبيَةَ باسمِ بِئرٍ فيها- على أثَرِ سَماءٍ كانَت مِن اللَّيلِ، أي: صلَّى صَلاةَ الصُّبحِ في الحُدَيْبيَةِ بعْدَ مَطَرٍ نَزَل في تِلك اللَّيلةِ، فلمَّا سلَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وانتهَى مِن صَلاتِه، أقبَلَ على النَّاس بوجْهِه الشَّريفِ، فسَألَهم: هل تَدْرونَ ماذا قال ربُّكم عزَّ وجلَّ؟ فأجابوه: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، وهذا حُسنُ أدَبٍ مِن الصَّحابةِ رَضيَ اللهُ عنهم في تَسليمِ الأمرِ للهِ عزَّ وجَلَّ، ولرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: قال اللهُ تعالى: أصبَحَ مِن عِبادي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ، والمعنى: أصبَحَ النَّاسُ بالنِّسبةِ إلى نُزولِ الأمطارِ على قِسمَينِ: قِسمٍ مؤمِنٍ باللهِ تعالى لا يُشرِكُ به شَيئًا، وقِسمٍ كافِرٍ بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه، فأسنَدَ إنزالَ الأمطارِ حقيقةً إلى اللهِ تعالى؛ فذلِك مُؤمِن بوحدانيَّةِ الله، وكافِرٌ بالكَوكِبِ. وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا -والنوءُ مَنزِلُ القَمرِ- فذلِك كافِرٌ باللهِ، مؤمِنٌ بالكَوكَبِ، فمَن نسَبَ الأمطارَ وغيرَها مِن الحوادِثِ الأرضيَّةِ إلى تَحرُّكاتِ الكَواكِبِ في طُلوعِها وسُقوطِها مُعتقِدًا أنَّها الفاعِلُ الحقيقيُّ، فهو كافِرٌ مُشرِكٌ. ولا يَدخُلُ في ذلك ما لو أرادَ القائلُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَل النَّوْءَ علامةً لِلمَطرِ، ووَقْتًا له، وسببًا مِن أسبابِه، فهذا مؤمِنٌ لا كافِرٌ، ويَلزَمُه مع هذا أنْ يَعلَمَ أنَّ نُزولَ الماءِ لِحِكْمةِ اللهِ تعالَى ورَحمتِه وقُدْرتِه، لا بِغَيرِ ذلك؛ لأنَّه مرَّةً يُنزِلُه بِالنَّوْءِ ومرَّةً بغَيرِ نَوْءٍ، كَيف يَشاءُ لا إلهَ إلَّا هو، والأحَبُّ لِكُلِّ مؤمِنٍ أن يَقولَ كما وجَّهَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «مُطِرْنا بِفَضلِ اللهِ ورَحْمَتِه.

إن آيات نزول المطر في القرآن الكريم وكذلك ما ورد عن نزول المطر في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم صورة شاملة عن هذه الظاهرة الطبيعية التي تحمل في طياتها معاني الرحمة والعذاب، الحياة والموت. فهي تذكر الإنسان بقدرة الله وتحثه على التأمل في آياته العظيمة. كما يتضح من القرآن الكريم والسنة المطهرة أن المطر نعمة تستوجب الشكر ووسيلة للتأمل في عظمة الخالق عز وجل؛ كما أنها تستدعي الحذر من عذاب الله تعالى، وهو ما يجعل المؤمن دائمًا على اتصال بربه جل وعلا عبر الذكر والدعاء والاعتراف بفضله.

المصادر: القرآن الكريم، صحيحي البخاري ومسلم، صحيح أبي داود، تفسير بن كثير، تفسير الطبري، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.